نظرية نزول القرآن بين الدفعي والتدريجي

اعداد

الشيخ جواد الفرطوسي

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

مقدمة :

أن للمتتبع والمراقب للألطاف الالهية والفيوضات على العباد يرى بوضوح أن لطفه تعالى وعنايته تكون بشكل أكبر لأنبيائه ورسله الذين كلفهم بحمل رسالته لعباده ولا سيما خاتمهم وأفضلهم نبينا محمد (صلى الله عليه وآله) حيث أن الدور الذي ينهض به للناس كافة وهدايتهم وارساء اسس دينهم وجذبهم واصلاحهم وتحويل المجتمع الانساني برمته من طالح الى صالح واعتراف الكتاب العالميين الى عصرنا الحالي بانه الشخصية رقم (١) من بين اعظم (١٠٠) شخصية عرفها التاريخ لحقيق بان نقر بالوجدان قبل العيان بان النبي (صلى الله عليه وآله) مطلع على التعاليم والاسس والقواعد والتوجيهات والارشادات وغيرها من الآيات وحقائق القران الكريم ككتاب هداية ومعجزة خالدة على مر الازمان قبل أن توزع وتفصل آياته على شكل نجوم تتبع الاحداث والتوجيهات الالهية على مدى (٢٣) عاما .

وذلك مما تقتضيه المصلحة وقد اقرت به الآيات القرآنية المباركة ان أنزل بشكل موحد واحكمت آياته ثم فصلت بتوجيه من رب حكيم . ولنا في هذه الوريقات اطلالة مختصره على ما ذكره العلماء والباحثون بخصوص هذا الشأن والمبحوث تحت مسمى النزول الدفعي والتدريجي للقران الكريم .

مفهوم النزول الدفعي وآراء العلماء حوله مفهوم النزول الدفعي في اللغة:

النزول في اللغة مأخوذ من نزل، وهو هبوط شيءٍ ووقوعه[١]، أو انحطاطه من علوّ[٢]. والدَّفْعَة هي الانتهاء إلى موضعٍ بمرّةٍ[٣] أو هي المرّة الواحدة[٤]ويقال: جمع الشيئين في دَفعَةٍ، أي: دفعهما معاً[٥]. والخلاصة: هو هبوط شيءٍ من علوٍّ إلى موضعٍ أدنى مرّة واحدة بدون تكرّر أو تدرّج.

مفهومه الاصطلاحي:

ويراد به في اصطلاح المفسّرين والعلماء: هو نزول القرآن الكريم جملة واحدة بكامله من اللوح المحفوظ على قلب النبي| أو السماء الدنيا في ليلة القدر قبل أن ينزل مرّة أخرى بصورة تدريجيّة مفرّقة على هيئة نجوم طوال فترة الرسالة المحمّديّة[٦].

وقال الطباطبائي في تفسير الميزان :

و النزول : هو الورود على المحل من العلو .

و الفرق : بين الإنزال و التنزيل .

أن الإنزال : دفعي ، و التنزيل : تدريجي .

و القرآن : اسم للكتاب المنزل على نبيه محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، باعتبار كونه مقروءً .

كما قال تعالى : { إِنَّا جَعَلْناهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٣) } الزخرف .

و يطلق : على مجموع الكتاب ، و على أبعاضه .

و الآية : تدل على نزول القرآن في شهر رمضان .

---

[١] - انظر: كتاب العين، خليل بن أحمد الفراهيدي، ج٧، ص٣٦٧؛ معجم مقاييس اللغة، أحمد بن فارس، ج٥، ص٤١٧؛ وغير ذلك.
[٢] - مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني، ص٧٩٩
[٣] - كتاب العين، خليل بن أحمد الفراهيدي، ج٢، ص٤٥؛ المحيط في اللغة، ابن عباد، ج١، ص٤٢٧
[٤] - الصحاح (تاج اللغة و صحاح العربية)، إسماعيل بن حماد الجوهري، ج٣، ص١٢٠٨؛ لسان العرب، ابن منظور، ج٨، ص٨٧.
[٥] - شمس العلوم و دواء كلام العرب من الكلوم، الحميري، ج٤، ص٢١١٣.
[٦] - انظر على سبيل المثال: تصحيح اعتقادات الأمامية، الشيخ المفيد، ص١٢٣؛ أمالي السيد المرتضى في التفسير والحديث والأدب، الشريف المرتضى، ج٤، ص١٦١؛ وكلّ من تعرّض إلى المسألة من العامّة والخاصّة.

و قد قال تعالى : { وَ قُرْآناً فَرَقْناهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلى مُكْثٍ وَ نَزَّلْناهُ تَنْزِيلًا (١٠٦) } الإسراء .

و هو ظاهر : في نزوله تدريجا في مجموع مدة الدعوة ، و هي ثلاث و عشرون سنة تقريبا .

و المتواتر : من التاريخ يدل على ذلك .

تفسير كريم لحقيقة الإنزال الدفعي في المقام العالي والتنزيلي في مدة الدعوة :

و الذي يعطيه التدبر : في آيات الكتاب أمر آخر .

فإن الآيات : الناطقة بنزول القرآن في شهر رمضان ، أو في ليلة منه.

إنما عبرت : عن ذلك بلفظ الإنزال الدال على الدفعة ، دون التنزيل .

كقوله تعالى : { شَهْرُ رَمَضانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ (١٨٥) } البقرة .

و قوله تعالى : {حم (١) وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ (٢) إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ (٣) } الدخان .

و قوله تعالى : { إِنَّا أَنْزَلْناهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ (١) } القدر.

و اعتبار الدفعة :

إما بلحاظ : اعتبار المجموع في الكتاب .

أو البعض النازل : منه كقوله تعالى : { كَماءٍ أَنْزَلْناهُ مِنَ السَّماءِ (٢٤)} يونس ، فإن المطر إنما ينزل تدريجا ، لكن النظر هاهنا معطوف إلى أخذه مجموعا واحدا ، و لذلك عبر عنه بالإنزال دون التنزيل . و كقوله تعالى : { كِتابٌ أَنْزَلْناهُ إِلَيْكَ مُبارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آياتِهِ (٢٩)} ص .

و إما لكون الكتاب :

ذا حقيقة أخرى : وراء ما نفهمه بالفهم العادي ، الذي يقضى فيه بالتفرق و التفصيل و الانبساط و التدريج ، هو المصحح لكونه واحدا غير تدريجي ، و نازلا بالإنزال دون التنزيل .

و هذا الاحتمال الثاني : هو اللائح من الآيات الكريمة.

كقوله تعالى : { كِتابٌ أُحْكِمَتْ آياتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ (١)} هود .[1]

فإن هذا الإحكام : مقابل التفصيل . و التفصيل : هو جعله فصلا فصلا ، و قطعة قطعة .

فالإحكام : كونه بحيث لا يتفصل فيه جزء من جزء ، و لا يتميز بعض من بعض ، لرجوعه إلى معنى واحد لا أجزاء و لا فصول فيه . و الآية : ناطقة بأن هذا التفصيل المشاهد في القرآن ، إنما طرأ عليه بعد كونه محكما غير مفصل .

و أوضح منه قوله تعالى : { وَ لَقَدْ جِئْناهُمْ بِكِتابٍ فَصَّلْناهُ عَلى عِلْمٍ هُدىً وَ رَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جاءَتْ رُسُلُ رَبِّنا بِالْحَقِّ (٥٣)} الأعراف .

و قوله تعالى : {وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَى مِن دُونِ اللّهِ وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لاَ رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (٣٧) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُواْ مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٣٨) بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ (٣٩) }يونس .

فإن الآيات الشريفة : و خاصة ما في سورة يونس ، ظاهرة الدلالة على أن التفصيل أمر طار على الكتاب .

فنفس الكتاب : شيء ، و التفصيل الذي يعرضه شيء آخر .

و أنهم : إنما كذبوا بالتفصيل من الكتاب ، لكونهم ناسين لشيء يئول إليه هذا التفصيل و غافلين عنه ، و سيظهر لهم يوم القيامة و يضطرون إلى علمه ، فلا ينفعهم الندم ، و لات حين مناص .و فيها إشعار : بأن أصل الكتاب ، تأويل تفصيل الكتاب.

و أوضح منه قوله تعالى : { حم (١) وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ (الزخرف٢) إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٣) وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ (٤)}الزخرف.

فإنه ظاهر : في أن هناك كتابا مبينا عرض عليه ، جعله مقروء عربيا ، و إنما ألبس لباس القراءة و العربية ليعقله الناس ، و إلا فإنه - و هو في أم الكتاب - عند الله ، عليّ لا يصعد إليه العقول ، حكيم لا يوجد فيه فصل و فصل .

و في الآية : تعريف للكتاب المبين ، و أنه أصل القرآن العربي المبين .و في هذا المساق أيضا قوله تعالى : { فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ (٧٥) وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ

[1] - الميزان في تفسير القرآن ج٢ص ١٧.

(٧٦) إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ (٧٧) فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ (٧٨) لَّا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ (٧٩) تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (٨٠) } الواقعة . فإنه ظاهر : في أن للقرآن موقعا ، هو في الكتاب المكنون ، لا يمسه هناك أحد إلا المطهرون من عباد الله ، و أن التنزيل بعده . و أما قبل التنزيل : فله موقع في كتاب مكنون عن الأغيار . و هو الذي عبر عنه : في آيات الزخرف ، بأم الكتاب .[١]

و في سورة البروج : باللوح المحفوظ ، حيث قال تعالى: { بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ (٢٢)} البروج ، و هذا اللوح إنما كان محفوظا لحفظه من ورود التغير عليه . و من المعلوم : أن القرآن المنزل تدريجا لا يخلو عن ناسخ و منسوخ ، و عن التدريج الذي هو نحو من التبدل . فالكتاب المبين : الذي هو أصل القرآن و حكمه الخالي عن التفصيل ، أمر وراء هذا المنزل ، و إنما هذا بمنزلة اللباس لذاك.

ثم إن هذا المعنى : أعني كون القرآن في مرتبة التنزيل بالنسبة إلى الكتاب المبين - و نحن نسميه بحقيقة الكتاب - .

بمنزلة : اللباس من المتلبس .

و بمنزلة : المثال من الحقيقة .

و بمنزلة : المثل من الغرض المقصود بالكلام .

هو المصحح : لأن يطلق القرآن أحيانا على أصل الكتاب .

كما في قوله تعالى : { بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ (٢٢)} البروج ، إلى غير ذلك .

و هذا الذي ذكرنا : هو الموجب لأن يحمل : قوله : { شَهْرُ رَمَضانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ } .

و قوله : { إِنَّا أَنْزَلْناهُ فِي لَيْلَةٍ مُبارَكَةٍ }.

و قوله { إِنَّا أَنْزَلْناهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ } .

على إنزال : حقيقة الكتاب ، و الكتاب المبين ، إلى قلب رسول الله صلى الله عليه وآله دفعة .

---

[١] - الميزان في تفسير القرآن ج٢ص ١٨ .

كما أنزل : القرآن المفصل على قلبه تدريجا في مدة الدعوة النبوية .

و هذا هو : الذي يلوح ، من نحو قوله تعالى : { وَ لا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضى إِلَيْكَ وَحْيُهُ (١١٤)} طه .

و قوله تعالى : { لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ إِنَّ عَلَيْنا جَمْعَهُ وَ قُرْآنَهُ فَإِذا قَرَأْناهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنا بَيانَهُ (١٩) } القيامة . فإن الآيات : ظاهرة في أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، كان له علم بما سينزل عليه ، فنهي عن الاستعجال بالقراءة قبل قضاء الوحي ، و سيأتي توضيحه في المقام اللائق به إن شاء الله تعالى .و بالجملة : فإن المتدبر في الآيات القرآنية . لا يجد مناصا : عن الاعتراف بدلالتها على كون هذا القرآن المنزل على النبي تدريجا .متكئا : على حقيقة متعالية عن أن تدركها أبصار العقول العامة ، أو تناولها أيدي الأفكار المتلوثة بألواث الهوسات و قذارات المادة . و أن تلك الحقيقة : أنزلت على النبي إنزالا ، فعلمه الله بذلك حقيقة ما عناه بكتابه . و سيجيء : بعض من الكلام المتعلق بهذا المعنى في البحث عن التأويل و التنزيل ، في قوله تعالى : { هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتابَ مِنْهُ آياتٌ مُحْكَماتٌ (٧) } آل عمران .فهذا ما يهدي إليه : التدبر ، و تدل عليه الآيات .[١]

نظريات نزول القرآن

النظرية الأولى/

وقد أختلف الباحثون الإسلاميون في وجه الجمع بين الأمرين وقد ذكروا في ذلك آراء ونظريات نعرض فيما يلي لأهمها:

وهي التي تعتبر للقرآن نزولين: النزول الأول إلى البيت المعمور أو بيت العزّة - حسب بعض التعابير- وهذا هو النزول الدفعي الذي أشارت إليه بعض الآيات السابقة، والنزول الثاني على النبي محمد صلى الله عليه وآله بالتدريج وطيلة المدة التي كان يمارس فيها مهمته القيادية في المجتمع الإسلامي. وقد ورد في هذا بعض النصوص عن الإمام الصادق عليه السلام، فقد روي عنه في قوله عزّ وجل: (شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِيَ أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ) كلام يقول فيه (إن القرآن نزل جملة واحدة في شهر رمضان إلى البيت المعمور ثم أُنزل من البيت المعمور في مدة عشرين سنة)[٢].

وقد نقل ما يقارب هذا عن ابن عباس أيضاً، فقد روي عنه أنه قال: أُنزل القرآن جملة واحدة إلى سماء الدنيا ليلة القدر ثم أُنزل بعد ذلك بعشرين سنة[٣]. وقد خالف المحققون

---

١ - ن .م السابق

٢ - - البحار ج/٩٢ ص ٢٢١.

٣ - الوسائل ج ٧ / ص٢٢٩

من علماء القرآن هذا الرأي ورفضوا النصوص التي وردت فيها ورموها بالضعف والوهن وأقاموا شواهد على بطلانه.

يقول الشيخ المفيد (ره) تعقيباً على هذه النظرية التي أخذ بها أبو جعفر بن بابويه الصّدوق: (الذي ذهب إليه أبو جعفر في هذا الباب أصله حديث واحد لا يوجب علماً ولا عملاً، ونزول القرآن على الأسباب الحادثة حالاً فحالاً يدل على خلاف ما تضمنه الحديث، وذلك أنه قد تضمن حكم ما حدث وذكر ما جرى على وجهه وذلك لا يكون على الحقيقة إلا لحدوثه عند السّبب، ألا ترى قوله تعالى: (وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ) (النساء ١٠٠). وقوله: (وَقَالُوا لَوْ شَاء الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُم مَّا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ) (الزّخرف٢٠). وهذا خبر عن ماضٍ ولا يجوز أن يتقدم مخبره فيكون حينئذ خبراً عن ماضٍ وهو لم يقع بل هو في المستقبل، وأمثال ذلك كثيرة[١].

ثم يستشهد رحمه الله ببعض الشواهد القرآنية الأخرى التي تؤكد النزول التدريجي للقرآن وتقوم قرينة على بطلان النزول الدفعي له. ويناقش صاحب المنار هذه النظرية أيضاً ويرفضها قائلاً: (ورووا في حلّ الإشكال أن القرآن نزل في ليلة القدر من رمضان إلى سماء الدنيا وكان في اللوح المحفوظ فوق سبع سماوات ثم نزل على النبي صلى الله عليه وآله في رمضان منه شيء، خلافاً لظاهر الآيات، ولا تظهر المنّة علينا ولا الحكمة في جعل رمضان شهر الصوم - على قولهم هذا - لأنّ وجود القرآن في سماء الدنيا كوجوده في غيرها من السموات أو اللوح المحفوظ من حيث أنه لم يكن هداية لنا، ولا تظهر فائدة في هذا الإنزال ولا في الإخبار به)[٢]. إذن فأهم ما يرد على هذه النظرية يتلخص في شيئين:

١ - ورود الآيات القرآنية في بعض المناسبات الخاصة بحيث لا يعقل التكلم بتلك الآية قبل تلك المناسبة المعينة.

٢ - عدم تعقل فائدة النزول الأول للقرآن من حيث هداية البشر فلا وجه لهذه العناية به في القرآن والاهتمام به (إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ).

النظرية الثانية/

إن المراد من إنزاله في شهر رمضان وفي ليلة ابتداء القدر منه ابتداء إنزاله في ذلك الوقت ثم أستمر نزوله بعد ذلك على الرسول صلى لله عليه وآله بالتدريج ووفقاً للمناسبات والمقتضيات.

---

١ - الأتقان ج١/ ص٤٠

٢ - تفسير المنار ج٢/ص١٦١

قال صاحب المنار (وأما معنى إنزال القرآن في رمضان مع أن المعروف باليقين أن القرآن نزل منجماً متفرقاً في مدة البعثة كلها فهو أن ابتداء نزوله كان في رمضان وذلك في ليلة منه سميت ليلة القدر - أي الشرف والليلة المباركة - كما في آيات أخرى وهذا المعنى ظاهر لا

وقال الشيخ المفيد: (وقد يجوز في الخبر الوارد بنزول القرآن جملة في ليلة القدر أنه نزل جملة منه في ليلة القدر ثم تلاه ما نزل منه إلى وفاة النبي صلى الله عليه وآله)[1].

ويبدو أن هذا الرأي هو الذي استقطب أنظار الأغلبية من محققي علوم القرآن والتفسير نظراً إلى كونه أقرب الآراء إلى طبيعة الأمور وأوفقها مع القرائن وظواهر النصوص القرآنية، فإن القرآن يطلق على القرآن كله كما يطلق على جزء منه، ولذلك كان للقليل من القرآن نفس الحرمة والشرف الثابتين للكثير منه، فنزول جزءٍ من القرآن - أستهل به الوحي الإلهي في ليلة القدر من شهر رمضان - يصدق معه نزول القرآن في ليلة القدر وفي شهر رمضان.

وتأييداً لهذه الفكرة فإننا نحاول الإستفادة من التعابير الجارية بين عامة الناس حين يقولون مثلاً سافرنا إلى الحج في التاريخ الفلاني، وهم لا يريدون بذلك إلا مبدأ السفر، أو نزل المطر في الساعة الفلانية ويقصد به ابتداء نزوله، فإنه قد يستمر إلى ساعات ومع ذلك يصح ذلك التعبير. وبعبارة أخرى، أننا نلاحظ صحة هذا النوع من الاستعمال في الأسماء التي تطلق على قليل المعنى وكثيره على السواء كالمطر والسفر وأمثالها بخلاف ما لا يطلق إلا على المعنى بكامله كالبيت مثلاً فإنه لا يصح في العادة أن يعبّر عن الشروع ببنائه بعبارة (بنينا البيت في الزمان الفلاني)، وكلمة (القرآن) كما أشرنا سابقاً تطلق على كلام الله مطلقاً قليله وكثيره، فمن الطبيعي إذن التعبير عن ابتداء نزوله بـ (إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ) وما شاكل ذلك من التعابير. ولا بد أن نضيف على هذا الرأي إضافة توضيحية هي أن المقصود من كون ابتداء النزول القرآني في ليلة القدر من شهر رمضان ليس ابتداء الوحي على النبي صلى الله عليه وآله..فإن افتتاحه الوحي المحمدي كانت لسبع وعشرين خلون من رجب على الرأي المشهور وكانت الآيات التي شعّت من نافذة الوحي على قلب الرسول صلى الله عليه وآله لأول مرة هي (إقرأ بأسم..إلخ)، ثم أنقطع الوحي عنه لمدة طويلة ثم ابتدأه الوحي من جديد في ليلة القدر من شهر رمضان - وهذا الذي تشير إليه الآية المباركة - واستمر الوحي عليه صلى الله عليه وآله حتى وفاته. وبما ان هذا كان بداية استمرار النزول القرآني فقد صحّ اعتباره بداية لنزول القرآن.

---

[1] - شرح عقائد الصدوق ص٢٥٣

النظرية الثالثة/

وهي النظرية التي اختص بها العلاّمة الطباطبائي، وقد تعرّضنا لها نقلا من تفسير الميزان بشكل واضح ، وهي تمثل لوناً جديداً من ألوان الفكر التفسيري انطبعت بها مدرسة السيد الطباطبائي في التفسير.

كيفية نزول القرآن الكريم

لقد تحدث القرآن عن زمن النزول وكيفيته، فأوضح ان القرآن نزل في ليلة القدر من شهر رمضان المبارك، جاء ذلك في قوله تعالى: (شهر رمضان الذي انزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان...).

ثم بين الليلة التي نزل فيها القرآن، فقال: (انا انزلناه في ليلة مباركة انا كنا منذرين * فيها يفرق كل امر حكيم)((١)). وبين هذه الليلة المباركة بقوله: (انا انزلناه في ليلة القدر). وهكذا يوضح القرآن انه نزل ليلا في ليلة القدر على النبي الامين محمد(صلى الله عليه واله) في شهر رمضان المبارك. وفي موضع آخر تحدث عن كيفية نزول القرآن وتنزيله من قبل الله تعالى على النبي محمد(صلى الله عليه واله)، قال سبحانه: (ما كان لبشر ان يكلمه الله الا وحيا اومن وراء حجاب او يرسل رسولا فيوحي بأذنه ما يشاء انه علي حكيم)(٢).

وقال تعالى: (فاذا قراناه فاتبع قرآنه)((٣))، وقال تعالى: (وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا)((٤)). وقال تعالى: (وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا)(٥). وحصيلة ما يستفاد من هذه الآيات المباركة:

١- ان القرآن نزل وحيا من رب العزة، وبصورة قراءة، نزل به جبريل على النبي محمد(صلى الله عليه واله) وليس مكتوبا بصحف او الواح، كما نزلت الكتب الالهية الاخرى.

٢- ان النزول بدا في ليلة القدر من شهر رمضان المبارك، كما نزلت الكتب الالهية التوراة والانجيل والزبور في هذا الشهر المبارك، كما تفيد الروايات ذلك.

---

١ - سورة الدخان ، الاية ٣ و ٤
٢ - سورة الشورى ، الاية ٥١
٣ - سورة القيامة ، الاية ١٨
٤ - سورة الاسراء ، الاية ١٠٦
٥ - سورة الفرقان ، الاية ٣٢

٣- ان القرآن نزل مفرقا على شكل آيات او سور احيانا، ولم ينزل بصورته الكاملة على النبي محمد(صلى الله عليه واله) دفعة واحدة، ويتضح ذلك من قوله تعالى: (لتقرأه على الناس على مكث) و (ورتلناه ترتيلا) اي بيناه وفرقناه تفريقا، كما يتضح ذلك من رده على الكافرين بالآية ٣٢ من سورة الفرقان، الذين طالبوا بإنزاله جملة واحدة على النبي محمد(صلى الله عليه واله).

وما جاء في الفقرة الثالثة آنفا، هو ما يذهب اليه جمع من العلماء والمحققين، وبه قال الشيخ المفيد. غير ان هناك من يذهب الى ان القرآن نزل جملة واحدة من اللوح المحفوظ الى السماء الدنيا، ثم انزله الله تعالى عن طريق جبرئيل على نبيه محمد(صلى الله عليه واله) مفرقا. وقد اخرج الحاكم والبيهقي والنسائي وابن ابي شيبة وابن ابي حاتم والطبراني والبزاروابن مردويه عن ابن عباس بعدة طرق، اخرجوا ذلك[١].

ومن علماء الشيعة يذهب الى هذا القول الشيخ الصدوق ايضا وهو من اعاظم علماء الشيعة الامامية، وقد رد الشيخ المفيد هذا الراي، وناقش الصدوق، ولكي يتضح الرأيان فلنذكرهما معا: قال الشيخ الصدوق: (ان القرآن نزل في شهر رمضان، في ليلة القدر جملة واحدة الى البيت المعمور، ثم انزل من البيت المعمور في مدة عشرين سنة)[٢]. وقد رد الشيخ المفيد على هذا الراي بقوله: ((الذي ذهب اليه ابو جعفر في هذا الباب اصله حديث واحد، لا يوجب علما ولا عملا ونزول القرآن على الاسباب الحادثة حالا فحالا يدل على خلاف ما تضمنه الحديث. وذلك انه قد تضمن حكم ما حدث وذكر ما جرى، وذلك لا يكون على الحقيقة الا لحدوثه عند السبب. ثم استشهد بيات كثيرة مثل: (قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها) وكثير من امثال ذلك، بالإضافة الى استعمال القرآن صيغة الماضي في وقوع الحوادث التي وقعت في عهد النزول على النبي(صلى الله عليه واله) بعد حدوثها، فكيف يستعمل صيغة الماضي قبل وقوع الحوادث التي وقعت في المدينة في حال التسليم بنزوله كاملا في مكة ليلة القدر؟.

ثم قال: وقد يجوز في الخبر الوارد بنزول القرآن جملة في ليلة القدر، انه نزل جملة منه في ليلة القدر، ثم تلاه ما نزل منه الى وفاة النبي(صلى الله عليه واله). فأما ان يكون نزل باسره وجميعه في ليلة القدر، فهو بعيد مما يقتضيه ظاهر القرآن، والمتواتر من الاخبار، واجماع العلماء على اختلافهم في الآراء[٣].

<u>اول ما نزل من القرآن وآخر ما نزل منه:</u>

---

١ - السيوط ي ، الاتقان في علوم القرآن : ١١٦/١ ١١٧
٢ - تصحيح اعتقاد الصدوق : ص ٢٣٢
٣ - تصحيح اعتقاد الصدوق : ص ٢٣٣

ان اول ما نزل من القرآن هو قوله تعالى: (بسم اللّه الرحمن الرحيم* اقرا باسم ربك الذي خلق * خلق الانسان من علق * اقرا وربك الاكرم * الذي علم بالقلم * علم الانسان مالم يعلم) فهذه الآيات الخمس بعد البسملة، هي اول ما نزل من القرآن على النبي(صلى الله عليه واله) في غار حراء. اما الآيات الاخرى من سورة العلق فقد نزلت بعد فترة من الزمن ثم وضعت في موضعها الذي هي فيه من السورة، غير ان هناك آراء وروايات تتحدث عن ان اول ما نزل من القرآن هو سورة المدثر، واخرى تذهب الى ان اول ما نزل من القرآن هو سورة الفاتحة. واختار الطوسي والطبطبائي في تفسيريهما: ان اول ما نزل من القرآن، هو الآيات الخمس من سورة العلق.

وكما اختلف في اول ما نزل من القرآن، اختلف كذلك في آخر ما نزل منه، فقيل هي سورة براءة، وقيل سورة: اذا جاء نصر اللّه والفتح، وقيل سورة المائدة، وقيل غيرذلك. ويرجح علماء الشيعة الامامية ان آخر ما نزل من القرآن هو قوله تعالى: (اليوم اكملت لكم دينكم واتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام دينا). لماذا نزل القرآن مفرقا: اثار المشركون شبهة ملخصها: ان نزول القرآن مفرقا يعني ان النبي(صلى الله عليه واله) ليس مرسلا بدين من اللّه سبحانه، اذ لو كان وحيا الهيا على زعمهم لنزل دينا كاملا مرة واحدة ونزوله مفرقا يعني انه قول البشر يتأمل نصوصه فيأتي بها. فرد عليهم القرآن، وبين الحكمة من النزول مفرقا، فقال تعالى: (وقال الذين كفروا لولا انزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا)[1].

ويمكن ان يكون سبب هذه الشبهة ما هو معروف من اخبار الديانات السابقة ، ان الكتب انزلت مكتوبة جملة واحدة، وكيفية نزول القرآن تختلف عن كيفية نزول التوراة والانجيل والزبور، فالقرآن نزل قراءة ومفرقا، اما تلك الكتب فقد نزلت مكتوبة جملة واحدة وبصيغتها الكاملة. وقد ذكر القرآن ذلك، كما في قوله تعالى: (وكتبنا له في الالواح من كل شيء موعظة وتفصيلا لكل شي ء فخذها بقوة وامر قومك

[1] - سورة الفرقان ، الاية ٣٢ .

ياخذواباحسنها ساوريكم دار الفاسقين)[1]. وقال تعالى: (ولما سكت عن موسى الغضب اخذ الالواح وفي نسختها هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون)[2].

وهكذا يوضح القرآن ان التوراة انزلت مكتوبة بشكلها الكامل في الالواح، وبهذه الصيغة تلقاها النبي موسى(عليه السلام). وقد بين القرآن الحكمة من نزوله مفرقا في الآية (٣٢) من سورة الفرقان، كما وبين ذلك في الآية (١٤٥) من سورة الاعراف.

وملخص الحكمة في الايتين هو:

١- لنثبت به فؤادك. ٢ - لتقرأه على الناس على مكث.

فالحكمة اذن هي ان استمرار نزول الوحي، وتواصل نزول القرآن ومواصلة النبي بالقرآن، يثبت فؤاد النبي(صلى الله عليه واله) ويقوي موقفه الجهادي في مواجهة التحديات اولا، وثانيا ان الرسالة الاسلامية رسالة تغيير شامل، وتسعى لبناء مجتمع ودولة وحضارة، وتثبيت قانون ونظام. والتغيير والبناء يقتضي التدرج في التبليغ لمواصلة عملية الهدم والبناء، ولترسخ الدعوة في النفوس، وتستوعب العقيدة والاحكام والمفاهيم بشكل تدريجي، وليستقبل الناس التغيير على مراحل وليتفاعلوا مع مبادئ القرآن، وتتهيأ النفوس لتحمل التكاليف.

وهكذا يكون العامل الزمني والنزول التدريجي قضية ضرورية للنبي الاكرم(صلى الله عليه واله)وللمجتمع كما يوضح القرآن ذلك. ولعل البحث يدعونا الى ان نذكر ان الرسول محمد(صلى الله عليه واله) كان نبيا قبل ان يبعث رسولا، اي قبل ان ينزل عليه القرآن في غار حراء، وهذا يعني انه (صلى الله عليه واله) كان يتلقى تعاليم قرآنية بمعانيها ودلالاتها ليعد ويهيا لمهمة تلقي القرآن، وحمل الرسالة الكبرى. وقد ذهبت بعض الآراء الى ان النبي الاكرم (صلى الله عليه واله) تلقى وحيا الاركان الاساسية والخطوط الكبرى لأمهات الكتاب جملة واحدة، ثم نزل القرآن بأكمله مفرقا عبر سني التنزيل.

أحاديث شريفة في النزول الدفعي والتدريجي للقرآن الكريم وليلة القدر :

و في الكافي : عن حفص بن الغياث عن أبي عبد الله قال :

---

[1] -- سورة الاعراف ، الاية ١٤٥ .
[2] - سورة الاعراف ، الاية ١٥٤ .

سألته عن قول الله عز و جل : { شَهْرُ رَمَضانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ }.

و إنما أنزل : في عشرين بين أوله و آخره ؟

فقال أبو عبد الله :

نزل القرآن : جملة واحدة في شهر رمضان إلى البيت المعمور .

ثم نزل : في طول عشرين سنة .

ثم قال : قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم :

نزلت صحف إبراهيم : في أول ليلة من شهر رمضان .

و أنزلت التوراة : لست مضين من شهر رمضان .

و أنزل الزبور : لثمان عشرة خلون من شهر رمضان .

و أنزل القرآن : في ثلاث و عشرين من شهر رمضان .

أقول : ما رواه عليه السلام عن النبي ، رواه السيوطي في الدر المنثور ، بعدة طرق عن وائلة بن الأسقع عن النبي .

و في الكافي و الفقيه عن يعقوب قال : سمعت رجلا يسأل أبا عبد الله عن ليلة القدر ؟

فقال : أخبرني عن ليلة القدر كانت أو تكون في كل سنة ؟

فقال أبو عبد الله عليه السلام : لو رفعت ليلة القدر لرفع القرآن.

و في الدر المنثور عن ابن عباس قال : شهر رمضان ، و الليلة المباركة ، و ليلة القدر .

فإن ليلة القدر : هي الليلة المباركة ، و هي في رمضان .

نزل القرآن : جملة واحدة من الذكر إلى البيت المعمور ، و هو موقع النجوم في السماء الدنيا ، حيث وقع القرآن ، ثم نزل على محمد صلى الله عليه وآله وسلم بعد ذلك في الأمر و النهي ، و في الحروب ، رسلا رسلا .

أقول : و روي هذا المعنى عن غيره أيضا ، كسعيد بن جبير .

و يظهر من كلامه : أنه إنما استفاد ذلك من الآيات القرآنية .

كقوله تعالى : { وَ الذِّكْرِ الْحَكِيمِ (٥٨) } آل عمران.

و في قوله تعالى : { وَ كِتابٍ مَسْطُورٍ فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ وَ الْبَيْتِ الْمَعْمُورِ وَ السَّقْفِ الْمَرْفُوعِ (٥) } الطور .

و قوله تعالى : { فَلا أُقْسِمُ بِمَواقِعِ النُّجُومِ وَ إِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ فِي كِتابٍ مَكْنُونٍ لا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ (٧٩) } الواقعة .

و قوله تعالى : { وَ زَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنْيا بِمَصابِيحَ وَ حِفْظاً (١٢) } حم السجدة .

و جميع ذلك : ظاهر .

إلا ما ذكره : في مواقع ، و أنه السماء الأولى ، و موطن القرآن ، فإن فيه خفاء ، و الآيات من سورة الواقعة غير واضحة الدلالة على ذلك . و قد ورد من طرق أهل البيت : أن البيت المعمور في السماء ، و سيجيء الكلام فيه في محله ، إن شاء الله تعالى . و مما يجب أن يعلم : أن الحديث .كمثل القرآن : في اشتماله على المحكم و المتشابه و الكلام : على الإشارة و الرمز شائع فيه . و لا سيما في أمثال هذه الحقائق من : اللوح ، و القلم ، و الحجب ، و السماء ، و البيت المعمور ، و البحر المسجور . فمما يجب للباحث : أن يبذل جهده في الحصول على القرائن.[1]

والحمد لله رب العالمين

الخاتمة

لقد اجاد العلماء في تمحيص وتتبع ما ورد وما نص عليه القران الكريم وبإخلاص نجدهم يحكمون النصوص والادلة الحديثية والعقلية في كشف الدلالة والوصول لفهم الآيات القرآنية المباركة ، ومنها فهم ظاهرة نزول القرآن الكريم الدفعية ومواكبته للمسيرة الاصلاحية والحياة الانسانية في بناء الامة الاسلامية في نزوله التدريجي

[1] - الميزان في تفسير القرآن ج٢ص ٣٠.

على مدى حياة النبي الاكرم (صلى الله عليه وآله وسلم) مما يخرجهم بالفهم الواضح والمتطابق مع الادلة والموروث عن اهل بيت العصمة (عليم السلام) في بيان الحقائق القرآنية والدينية .

المصادر :

١- القرآن الكريم
٢- كتاب العين، خليل بن أحمد الفراهيدي، ج٧ج ٢.
٣- معجم مقاييس اللغة، أحمد بن فارس، ج٥ .

٤- مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني .

٦-المحيط في اللغة، ابن عباد، ج١.

٧- تاج اللغة و صحاح العربية، إسماعيل بن حماد الجوهري، ج٣.

٨- لسان العرب، ابن منظور، ج٨.

٩ - شمس العلوم و دواء كلام العرب من الكلوم، الحميري، ج٤.

١٠ - تصحيح اعتقادات الأمامية، الشيخ المفيد،

١١- أمالي السيد المرتضى في التفسير والحديث والأدب، الشريف المرتضى، ج٤

١٢- الميزان في تفسير القرآن ، للطبطبائي ج٢

١٣- البحار، للمجلسي ، ج/٩٢.

٢- الوسائل ، للحر العاملي ، ج ٧ .

٣- الإتقان ، للسيوطي ،ج١.

١٤- تفسير المنار ، محمد رشيد رضا ج٢.

١٥- شرح عقائد الصدوق ، للمفيد .

١٦- البرهان ، للزركشي ج١ .

١٧- تفسير الطبري ج٣٠.

١٨- سيرة أبن هشام ج١.